تعليق

على دراسة الدكتورة

نوال إسماعيل

التغير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض

د. عبدالله الصالح العثيمين

الدراسة التي أعدتها الدكتورة نوال محمد عبد الله إسماعيل عن التغيّر في المنطقة المركزية لمدينة الرياض من الدراسات الجيدة[1]. ولعل من مظاهر جودتها ما ورد فيها من إحصائيات ومقارنات وخرائط. ومع ذلك فإنها لا تخلو من أمور ينبغي التعليق عليها. على أن هذا التعليق لا يتناول صلب الدراسة، الذي هو من شأن ذوي الاختصاص الدقيق، وإنما يتناول أشياء ذات صبغة توثيقية أو تاريخية.

الشوارع المفتوحة والحارات في المدينة القديمة للرياض (عن خريطة مدينة الرياض ١ : ١٥٠٠ ـ (١٩٧١ م)

فما يتعلق بالتوثيق يلاحظ أن الكاتبة الكريمة أوردت قائمة بأسماء مصادر في نهاية الدراسة، لكنها لم تشر إلى أمكنة اعتمادها عليها. والإشارة إلى أمكنة الاستشهاد ضرورية في البحث العلمي لأنها تسهل للقارىء التأكد من صحة ما ورد في الدراسة من معلومات وصحة فهم الكاتب للمعلومات التي استقاها من المصادر.

وقد أوردت الكاتبة الكريمة خريطة لمدينة الرياض القديمة (شكل ١)؛ مشيرة إلى أنها من عمل فيلبي سنة ١٩١٩ م[٢]. ويبدو أن فيلبي قد كتب الأسماء الواردة فيها بحروف لاتينية. ولذلك وقعت الكاتبة الكريمة في أخطاء حينما نقلتها إلى حروف عربية. فسمّت باب الثميري «باب الثمير»، وباب المَذْبَح «باب المذابح»، وباب آل سويلم «باب سويلم». وعدم ذكرها للمكان الذي نشر فيلبي فيه الخريطة يجعل من الصعب على القارىء أن يرجع إلى الأصل للتأكد من صحة ما أوردته من أسماء.

ووضعت الكاتبة الكريمة خريطة لبعض أحياء الرياض (شكل ٦). والمتأمل في هذه الخريطة يلاحظ بعض الأخطاء في مواقع الأحياء. من ذلك وضع حي السلامة مجاورًا لحي العليا من الجهة الشرقية، وحي الروضة مجاورًا لحي العليا وحي السلامة من الجهة الشمالية. ومعروف أن حي السلامة وحي الروضة بعيدان عن حي العليا.

أمّا ما يتعلق بالنواحي التاريخية فمنه ما ذكرته الكاتبة الكريمة من أن مدينة الرياض «لا يرجع تاريخها إلى أبعد من النصف الثاني للقرن التاسع عشر. قامت في موضع بعض الحلّات إلى جوار وادي حنيفة في هضبة نجد. أما عن وجود مدينة في العصور الوسطى في نفس هذا الموضع فالثابت أن الصلة بينها وبين الرياض الحالية قد انقطعت».[٣]

وما ذكرته الكاتبة الكريمة من «ثبوت» انقطاع الصلة بين المدينتين المذكورتين أمر لم تمدّ القارىء بما يقنعه بصحته. وتكوّن مدينة الرياض من محلّات كان بعضها مستقلاً عن

البعض الآخر في فترات تاريخية معينة لا يعني عدم وجود صلة بين تلك المحلات وبين المدينة بعد أن أصبحت تضمها كلها. ولقد أطلق اسم الرياض على جزء من هذه المدينة، على الأقل، في بداية القرن الثامن عشر الميلادي. ذلك أن الشيخ أحمد المنقور المتوفي سنة ١١٢٥ هـ (١٧١٣ م) قد ذكرها بهذا الاسم في تاريخه[٤]. وبعد وفاته بحوالي ربع قرن وحّد دهام بن دواس أجزاء المدينة تحت قيادته وأحاطها بسور منيع[٥]. ومنذ ذلك الوقت وهي تعرف بهذا الاسم. ثم أصبحت قاعدة لنشاط الإمام تركي بن عبدالله وعاصمة للدولة منذ أن استقرت الأمور له في المنطقة سنة ١٢٤٠ هـ. ولم يكن اتخاذه لها عاصمة يعني إنشاءها أو قيامها. لأنها كانت قائمة قبل ذلك. ولم يدخل عليها ذلك الإمام ولا خليفته من العمران ما غيّر ملامحها السابقة. بل ظل القصر الذي بناه دهام بن دواس هو قصر الحكم. وظل السور الذي بناه ذلك الأمير هو سور المدينة[٦].

وهكذا يتضح أن ما ذكرته الكاتبة الكريمة من أن تاريخ مدينة الرياض لا يرجع إلى أبعد من النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي غير دقيق.

ثم ذكرت الكاتبة الكريمة أن «الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت تكوين المدينة — في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حسب رأيها — ونموها فرضت عليها نموذجاً يختلف عن العصر الذي نشأت فيه»[٧].

والواقع أن تكوين مدينة الرياض، مهما اختلفت الآراء في تاريخه، لا يختلف عن تكوين البلدان النجدية من حيث وجود الجامع وقصر الحكم وبيوت علية القوم والمتاجر في وسط المدينة. وهذا ما حتمته الظروف الدينية والأمنية بصفة أساسية في أكثر المدن الإسلامية على مرّ العصور.

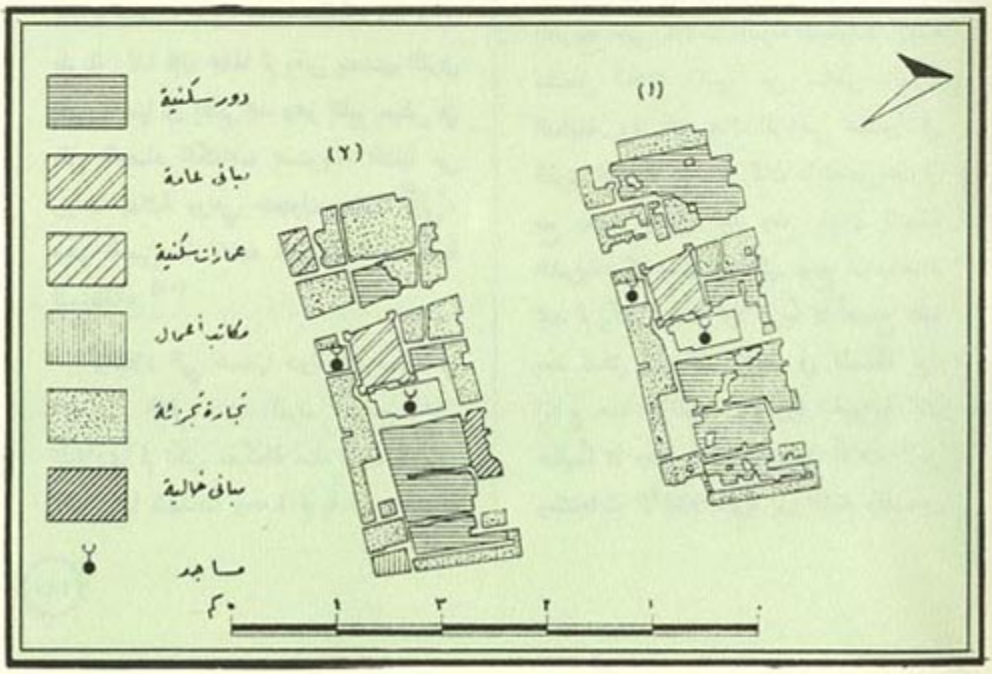

«التغير في القطاع الشبيه بالمنطقة الانتقالية بين سنتي ٦٨/ ١٩٧٨ م»

(الرياض من ا

ثم ذكرت الكاتبة الكريمة أن موقع الرياض «معزول عن بقية الأجزاء المعمورة في الدولة لنقص الطرق والمواصلات الجيدة من ناحية وصعوبة التضاريس وطول المسافات القاحلة من ناحية أخرى»[٨].

ولعله من الواضح أن ليست هنالك تضاريس صعبة تعزل الرياض عن بقية البلدان التابعة لها. بل كانت طرق القوافل سالكة، خاصة إذا توفرت الوسائل الأمنية. ومن المعروف أن هذه المدينة كانت ذات صلة تجارية قوية مع الأحساء[٩]، وأن بلداناً نجدية لا تختلف عنها من حيث الموقع التضاريسي، مثل بلدان القصيم، كانت تتبادل التجارة مع الشام وفلسطين ومصر[١٠]، ناهيك عن أقاليم الجزيرة العربية الداخلية.

ثم قالت الكاتبة الكريمة:

«فإذا نظرنا إلى مدينة الرياض نجد أنها كانت عاصمة لدولة ناشئة مفككة منذ قرون طويلة. لذا فإن مجالها لم يكن يتعدى القرى القريبة منها في إقليم نجد وهو إقليم يعيش في ظل اقتصاد الكفاف بمستوياته الدنيا من زراعة بدائية ورعي متجول وصيد أوّليّ، وهو أقصى ما تنتجه الطبيعة الصحراوية للمنطقة».[١١]

والبلاد التي شملتها دولة آل سعود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي لم تكن مفككة منذ قرون طويلة. ذلك أنها شهدت وحدة قوية زمن الدولة السعودية الأولى، التي انتهت سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م). ولم تمرّ سنوات قليلة على هذا التاريخ حتى عادت الدولة السعودية الثانية لتشمل أجزاء كبيرة من مناطق الدولة السابقة. ولم يكن مجال الرياض محصوراً في القرى القريبة منها. بل كان لها تعامل تجاري مع بعض بلدان نجد ومع بلدان المنطقة الشرقية، كما سبق أن ذكر. ومع أن اقتصاد نجد لم يكن مزدهرًا ولا قريبًا مما أصبح عليه بعد تدفق واردات النفط في المملكة فإن إنتاج هذا الإقليم من الثروة الحيوانية كان عظيمًا مما جعل أهله يصدرون آلاف الإبل ومنتجات الأغنام سنويًا إلى الشام وفلسطين

ومصر والحجاز[١٢].

ومن الواضح أن الكاتبة الكريمة خلطت في حديثها السابق بين فترتين تاريخيتين. فبينما كانت تتكلم عن الرياض في زمن الدولة السعودية الثانية قفزت إلى ذكر أشياء لم تحدث إلا بعد أن أصبحت الحجاز جزءاً من الدولة السعودية الثالثة.

وذكرت الكاتبة الكريمة أنه «من البديهيات المسلَّم بها أن اختيار الرياض كعاصمة كان قراراً يمثل القوة السياسية التي ترقد فوق الشعور الديني. فالمدينة خليفة للدرعية القريبة منها، مركز الدعوة السلفية. والحكومة ثيوقراطية تعتنق هذه الدعوة وتنادي بالعودة إلى الأصول الأولى للدين الإسلامي والحياة الإسلامية. وقد انعكس هذا بقوة على العاصمة الناشئة على نشاطاتها وطرق الحياة فيها وعلى المدينة نفسها بدءاً من الوحدة الأولية فيها وهي الدار حتى تخطيط المدينة. لذا فإن الرياض التي قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت لا تختلف عن المدن العربية التي اختطت في القرون الأولى للإسلام»[١٣].

وفي الكلام السابق عدة نقاط. الأولى اختيار الرياض عاصمة للدولة السعودية. ولعلّ ذلك الاختيار عائد إلى أمور من أهمها أن عاصمة آل سعود الأولى، الدرعية، كانت حينذاك مهدّمة. وكانت إعادة بنائها تتطلب أموالاً طائلة. ومن أهمها أن الرياض كانت مدينة غنية بمزارعها قوية في تحصيناتها التي كان قد بناها دهام بن دواس. وأنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين كانوا يكنّون وداً لمركز الدعوة الأول. لن يشكوا في شعور قادة الدولة الجدد وإن اتخذوا الرياض، التي مثلت في فترة من الفترات الخصم الألد لهذه الدعوة، عاصمة لهم لأن هؤلاء القادة من آل سعود سلاح الدعوة المذكورة. وبالإضافة إلى ما تقدم فإن تركي بن عبد الله قد عيّن أميراً في الرياض من قِبَل مشاري بن سعود. فعرف المدينة وعرف أهلها. وحين قام ابن معمّر بانقلابه على مشاري ونجح تركي في القضاء على ابن معمّر لم ير تركي مانعاً من اتخاذ المدينة التي كان أميراً فيها عاصمة لدولته؛ خاصة وقد توفرت العوامل الأخرى المذكورة من قبل.

والنقطة الثانية من كلام الكاتبة الكريمة السابق وصف حكومة آل سعود بأنها «ثيوقراطية». وقد يطلق هذا الوصف عليها من لا يعرف حقيقة دعوة الشيخ محمد التي قامت على أساسها تلك الحكومة؛ خاصة بعض الغربيين. وفي ذلك تجاوز. فالوصف المذكور ينطبق على حكومة البابا وما تقوم عليه من نظم دينية معروفة. والفرق واضح بين الحكومتين ونظاميهما. ولعله من المستحسن أن لا يندفع الباحثون في استعمال تعبيرات أجنبية قد تكون ممثلة للواقع في مجتمعات دون أخرى.

والنقطة الثالثة من كلام الكاتبة الكريمة السابق ما ذكرته من تأثر الرياض بدءاً بالدار حتى تخطيط المدينة بالعامل الديني الخاص.

وقد سبقت الإشارة إلى أن القادة السعوديين لم يخططوا الرياض وإنما اتخذوها عاصمة وهي مدينة كانت قائمة من قبل. ولم يكن لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أثر في تخطيطها بل كانت بشكلها الذي كانت عليه، الخصم الألد لتلك الدعوة.

وحينما تكلمت الكاتبة الكريمة عن انتقال الملك عبد العزيز وحاشيته للسكن خارج أسوار مدينة الرياض القديمة قالت :

«وقد نتج عن عملية الجلاء — هكذا — هذه زيادة مساحات الفراغ من ناحية وتقلص في القوة السياسية في المركز من ناحية أخرى». (١٤)

ومن غير المسلَّم به أن الانتقال المذكور قد نتج عنه تقلص في القوة السياسية في مركز مدينة الرياض. وذلك أن الانتقال كان انتقالاً في السكن. أما الإدارة فبقيت في الداخل. وذهاب الكاتبة الكريمة إلى ما ذهبت إليه في هذا الموضوع ناتج — فيما يبدو — عن محاولة تطبيق نظريات جغرافية من المشكوك فيه أن تنطبق على كل المجتمعات والأنظمة.

ويبدو أن انتقال الملك عبد العزيز وحاشيته للسكن خارج أسوار مدينة الرياض القديمة من أقوى أسبابه استتباب الأمن في البلاد. ففي الماضي كان من الضروري أن يكون القادة في داخل البلدة لئلا يتعرضوا لهجمات الخصوم. لكن حينما استتب الأمن في البلاد لم يعد هناك مانع من السكن داخل أسوار المدينة أو خارجها. وتوفّر المال كان مشجعًا على بناء بيوت سكنية خارج المدينة أحسن من البيوت التي كانت تسكن داخلها.

ومرة أخرى أكرر القول بأن دراسة الدكتورة نوال إسماعيل من الدراسات الجيدة ورغم الملاحظات الواردة في هذا التعليق.

والله الموفق،،

الهوامش :

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة **الدارة**، العدد الثاني، السنة الثامنة، محرم ١٤٠٣ هـ، ص ص ٦ — ٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٦ — ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧.

(٤) **تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور**، تحقيق ونشر الدكتور عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٩٠ هـ، ص ص ٣٠ و٦٥.

(٥) حمد الجاسر، **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، دار اليمامة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ هـ، ص ص ٩٢ و٩٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ص ١٠٤ و١٠٨. ويؤيد ذلك قول عبيد بن رشيد مخاطبًا الإمام فيصل بن تركي :

مِتْولع يا نور قصر ابن دواس عليك يا معطي الرمك بالعداد

انظر **الأزهار النادية في أشعار البادية**، نشر محمد كمال، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة، الجزء الثالث، ص ٥٧.

(٧) «الدراسة»، ص ٧.

(٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩) انظر عن هذا الموضوع **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، تحقيق وتعليق عبد الرحمن آل الشيخ، الدارة، ١٣٩٤ هـ ؟، ص ٣٢. و **دليل الخليج، القسم الجغرافي**، تأليف لوريمر وترجمة مكتب أمير قطر، الطبعة المنقحة، الدوحة، دون ذكر لسنة الطباعة، الجزء الخامس، ص ص ١٦٩٦ — ١٦٩٧.

(١٠) وكان يطلق على هؤلاء التجار اسم «عقيل». وقد استمرت تلك التجارة إلى فترة غير بعيدة.

(١١) «الدراسة» ص ٨.

(١٢) وكانت نجد، لكثرة إنتاجها للإبل، تسمّى «أم البل». انظر

(١٣) «الدراسة»، ص ٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢.

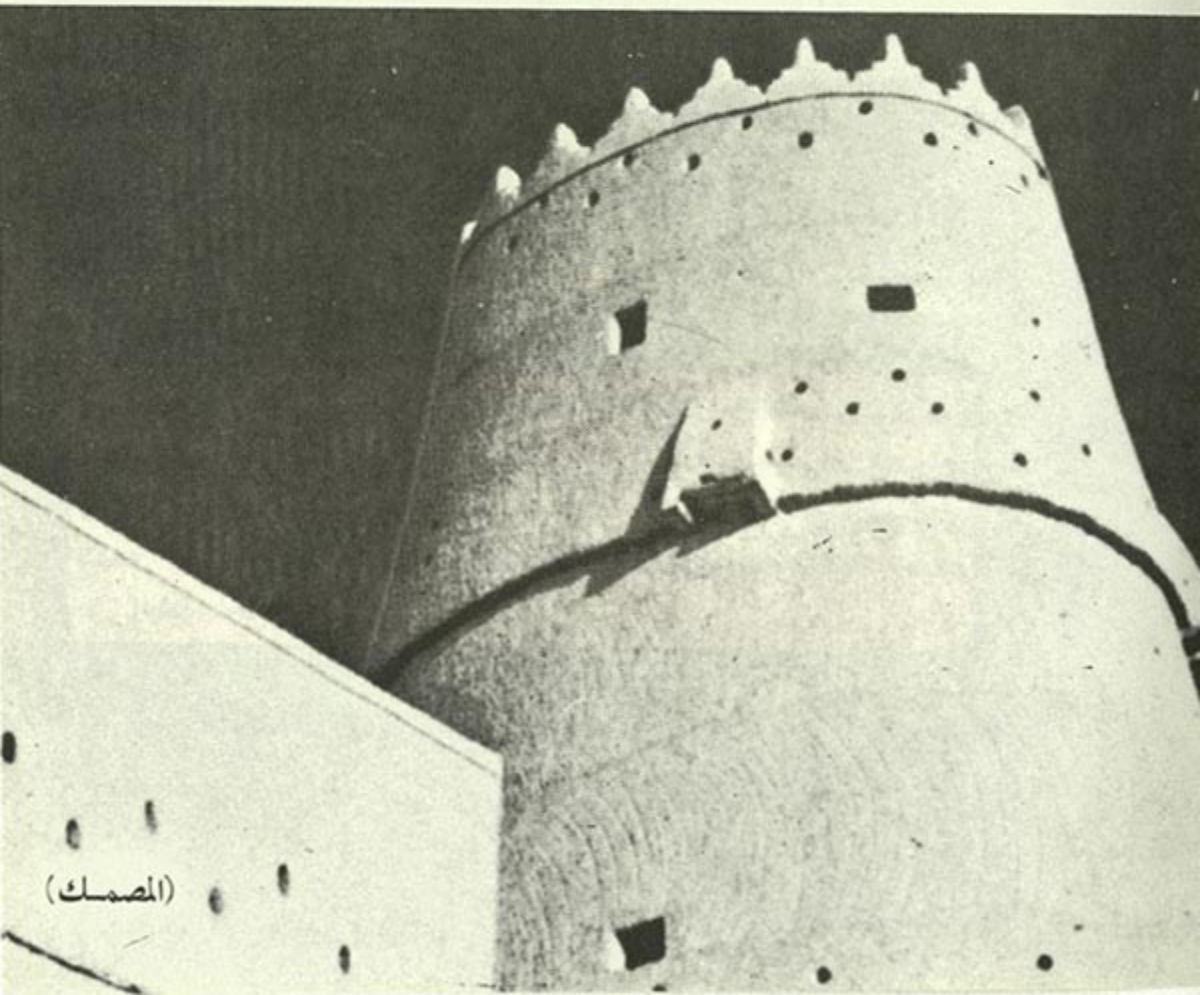

(المصمك)